http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد (1798) السنة السابعة - الثلاثاء (18) أيار 2010

خارج العاصمة

إنشـــــــــاء

محمد خضير

أعرف أن المعلومة والمنهج والتحليل النقدي أساسات أية كتابة لا نوعية، كالمقالة، لكني أتجاهل هذه المحددات وأكتب نوعاً إنشائياً غير محدد. إني أتسامى بشكل انتحاري على نوعي الإنشائي.

أعرف أني أتجول في فراغ إنشائي، في غابة مجهولة المسالك، تملؤها المعلومات والمعلومات المضادة كالطفيليات، أعلم أن البؤرة الملتهبة، المتحللة كرماد تاريخي عفن هي مساحتي ومراحي، أعلم أن هذه البؤرة (وطن الأم) تتعهر وتلطخ وجنتيها بمساحيق انتحارية، وأعرف أن شعبي مزدهر في الفراغ كشجرة آدم، ويتكلم لغة الملائكة، وأعرف أن العالم يحاول أن يحتويه بأكثر من واسطة حديثة ومرض استعماري قديم؛ أعرف كل هذا ولكني سأنشئ اللغة المناوئة لفكرة (احتواء العالم)، سأقطع شبكة المرض القديم وندوبه الحديثة بأسناني المركبة في جمجمة رملية. إني أحفر بردّة ارتجاعية يائسة وعنفوان شهوي. لا دفاع قوياً عندي ضد هجوم الأشباح المتفكرة، لكني أنشر حولي سحابة رؤيوية مخاتلة.

أقاوم رغبتي في ملاحقة (خواطر) عبد الله العروي، و(بينيات) عبد السلام بنعبد العالي، وكتابات كليطو والخطيبي ويقطين وابن الشيخ وسواهم من مفكري التجارب التنويرية المغاربة، وفي لحظة ضجر أسحب تفكري من حلقتهم الضاجة بتفاعلات النصوص العالمية، وسياسات (احتواء العالم)، وأرتمي في حديقة الشرّ الصامتة، أتمرغ في فراش الشوارع الخرساني، أستسلم لتيار الرعب المتفجر من كبسولة الحلم العاري، أعانق عشتار الفاجرة في حبسها التموزي، ألعن إنشائي وبلاغته الشيطانية، أسدل الستارة على عهر خطابه الشعبوي المتصاعد من حمأ القرون البالية فيلتف حول عنقي كأفعوان أوروك الأملس، يفجر كبسولته في أحشائي، يتحول إلى طبيعة قهرية مستبدة بالأغصان الخضر والجذور العاقلة، أخدر مثل دودة فاجأها الانفجار في باب ثقبها الأمن، أشاهد رقصة الشيطان وأتراجع أمام حقيقتي الإنشائية المغلفة بسحابة مخاتلة.

هل يتسع الوقت لكي أتسامى على خطابي الإنشائي؟ إني أدعه يرسب ليلمس القرار البارد المرعب المفتوح كجرح (كافكا) في خاصرة مريض (الأرياف) أو أدعه يبحث عن رطوبة السراديب التي انغلقت على شخصيات عبد الرزاق الشيخ علي ويوسف الحيدري وموسى كريدي، الأبطال الهاذين في مونولوج ملتف كعقدة الأفاعي في ليل طويل.

إني أستعمل آخر معلومات حقلي الإنشائي، أودع طمأنينتي عند جدار الأموات، وأعانق المصلوبين على أعمدة شارع مليء بالحفر والقمامة، أفاجئ نفسي معهم واقفاً في منتصف ليلة صيف عند الباب العالي/ الباب الواطئ للدخول إلى عصر الدولة الكافكوية. أتذكر المقطع المقشعر من قصة كافكا (طبيب الأرياف)، لمّا يطل حصان عربة الطبيب من النافذة المنخفضة على غرفة المريض الذي يعاني جرحاً في خاصرته موّاراً بالديدان، بينما أطفال القرية ينشدون للمريض خارج المنزل. تستعر الشهوة في بطن كافكا، وهو يشاهد هذه المسرحية الطفلية في فجر ليل أوربا الرأسمالية، الشهوة اليهودية في حفل ختان أطفالها. إني أحاول ضبط شهوتي، أراجع إنشائي كي أفكّ رهاب الطفولة في ليل العراق الأسطوري. إني أشتري حريتهم بالتضحية بإنشائي الشهوي، أتسامى على بؤرة الديدان في جرح كافكا اليهودي.

لا أعوّل على الجانب اللغوي في بداهتي الإنشائية فقط، وإنما أستعين ببداهتي التخطيطية لتعويض العناصر الضرورية المفقودة من مقالتي (المعلومة، النقد، المنهج)، كما أستعين ببداهة القارئ لتصور هذا الجانب المفقود. ألجأ إلى كراسات رسومي لتجسيم الجانب التصويري المكمل للجانب اللغوي التجريدي. أختار بعض الرسوم لسد الفراغ التعبيري، أولها رسم مستوحى من قصة كافكا (طبيب الأرياف)، وثانيها رسم مقتبس من لوحة جواد سليم (الشجرة القتيل)، وثالثها رسم من شارع القتل العراقي، ورابعها رسم خاص اسمه (القناع الأخير). إني أعوّل على تصوّر القارئ لأشكال هذه الرسوم (التخطيطات) وإضافة تفاصيل تعبيرية لها. فليتصور القارئ معي رأس الحصان المطل من النافذة في الرسم الأول منتشياً بالجرح في قصة كافكا، ورجلاً يمشي برأس مقطوع يحمله بين يديه خارجاً من صفّ من جذوع الأشجار اليابسة في الرسم الثاني، وسريراً تتناثر على شرشفه أعضاء إنسانية مبتورة من أجسادها في الرسم الثالث، ثم ليتصور معي في الرسم الرابع رجلاً بائساً يلقي بثقله على قناع معدني خلعه من وجهه وحصره بين فخذيه.

أعلم بحاجتي إلى هذه المكملات التصويرية لتجسيد رؤيتي الممتنعة عن الظهور في بؤرة الفراغ الإنشائية، وقد صار واضحاً أني لا أعني سوى نفسي بهذا الالتفاف الطويل حول البؤرة التي وصفتها في بداية المقالة. لا أملك من المساحة الإنشائية إلا ما أؤكد حريتي الدودية التي تمرح في جرحها، وأنا أعلم أن للآخرين حريتهم في اختيار المساحة لكي تحفر الديدان جروحهم على هواها.

قصة

ماعلمتم وذقتم

سميرة المانع

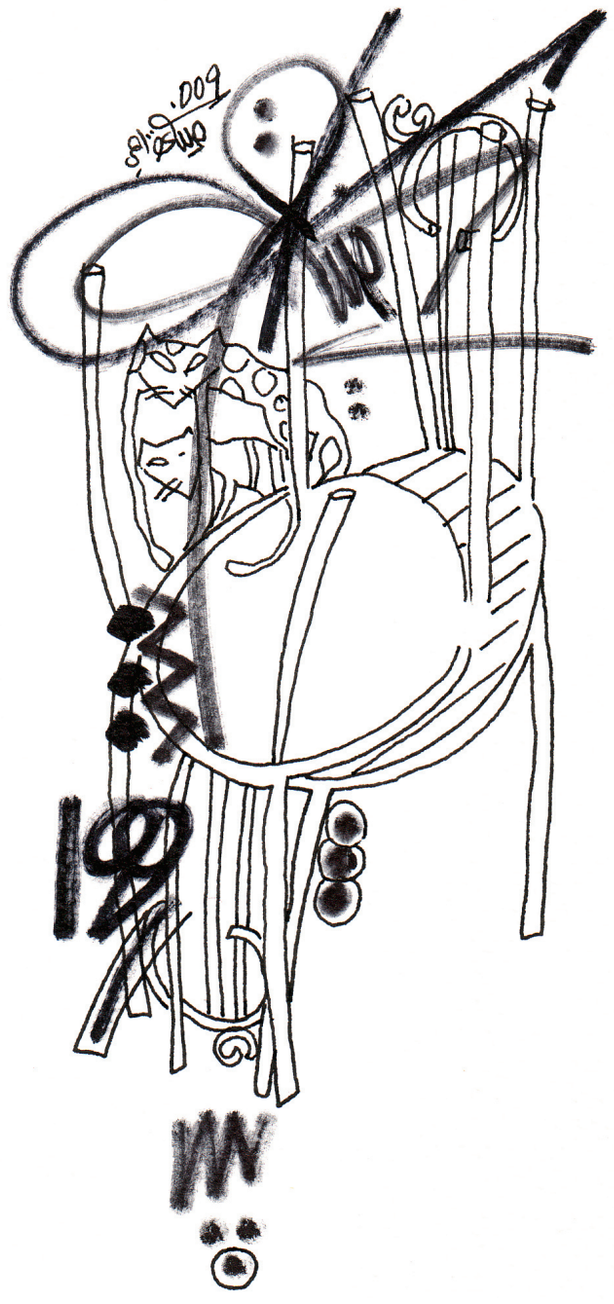

(..... ما من جيل ، منذ مدة طويلة ، حلم بالحياة واللذة والحرية بجرأة كجرأة هذا الجيل ، ثم كان حظه من الحياة أسوأ من هذا الجيل ، او تألم اكثر مما تألم هذا الجيل، او عرف عبودية اثقل من العبودية التي عرفها) من كتاب "جسر على نهر درينا " تأليف : إيفو اندريتش ترجمة سامي الدروبي . تحت الدكتورة سها ، (تسمى هكذا) أثناء الغداء ، على الطلب ، من الزوجة المضيفة ، اخبارها عن كيفية الحصول على قبول من احدى المدارس الداخلية ببريطانيا ، من اجل ادخال ابنتها فيها ذات الثلاثة عشر ربيعا . اعترضت الصبية بوجل :

– أخاف ان افشل باللغة الانكليزية .

– تفشلين ؟ ! انت احسن طالبة في صفك ببغداد بهذه المادة .

اخرستها وبقي الحاضرون في حاجة الى اقناع :

– درجاتها دائما بالتسعين ، دائما ، دائما ، كيف تفشلين باللغة الانكليزية ؟! انت في حاجة الى مجرد شهرين فقط ، لا اكثر ولا اقل ، لتصبحي بلبلا باللغة الانكليزية .صمتت الصبية . الموضوع لا يتعلق باللغة الانكليزية فحسب ، كان هناك الداخلي الموحش ، البلد الغريب ، فراق الاهل والوطن والاصدقاء . هذه كلها اشياء مهمة لا تستطيع ان تبوح بها . الام عاجزة عن ملاحظتها والفتاة لا تنطق بها جهرا لئلا تواجه بعاصفة رد عنيف من ام دكتوراه بعلم الاجتماع . استمرت مؤكدة صحة رأيها وصوابه . ثقتها عظيمة بنفسها وبأولادها ، سواء شاءوا ام ابوا :– انت مثل اخيك الكبير " حامد " . يدرس في مدينة " كارديف " الكومبيوتر ، ووجدنا عنده مايقرب من الف كتاب . يقرأ كل شيّء . العلوم ، الآداب ، كافكا ، النثر ، الشعر ، كافكا (اعيد اسم كافكا للمرة الثانية) يقرأ كل شيء ، كل شيء .تدخل الوالد الضيف لمساعدة الام ، الجالس معها ، على سفرة الغداء،ايضا ، أراد ان يفهم الحضور ماهية هذا الشاب المطلع على كل شيء :

– مع العلم هو ملتزم سياسيا

– طبيعي ، ولولا هذا لما سمحوا له بالمجيء في البعثة الحكومية للدراسة ببريطانيا .

ردت الام بامتنان ، ارتفع حاجب المضيف العراقي المغترب بلندن منذ سنوات . فتح باب لابد من اغلاقه . اندفع الزوج متحمسا للدفاع عن ابنه كي لا تذهب الظنون بالحاضرين بعيدا . لا يؤخذ كلامه على محمل الخطأ على اعتبار ان ابنه انانى وانتهازي :

– وهو مؤمن بافكاره . لو كان " حامد " بالعراق ، الآن ، لما تردد في التطوع والانتماء الى صفوف المحاربين بجبهة القتال ، لاشك .

تساقطت كلماته على اذن زوجته كرذاذ خفيف في ارض جدباء . تأوهت متحسرة ثم عادت لالتهام ما تبقى من طعام في انائها ، مطمئنة . الولد الكبير ناء عن العراق الآف الاميال . البنت ، ايضا ، ستدخل مدرسة داخلية بريطانية . بقي الولد الصغير معهما ، عمره لا يتجاوز الست سنوات ، يلعب في تلك اللحظة مع قطة اهل الدار قربهما بين الكراسي ، لا مجال لأن يؤخذ الى الحرب عندما يعودان الى العراق معه قريبا ، خفيفي الاحمال ، ولو على حساب الفرقة المضنية لاثنين من فلذة كبديهما . على اية حال ، كل شيء يهون ولا ان يتعرض ابناؤهما لنيران حرب لا يعلم سوى الله مداها ، اججت دون استشارة احد من اباء وامهات الجنود الذين سيطحنون بها دون اكتراث . لقد فكر الزوجان بكل شيء قبل ان يتزوجا ، الا ان يموت اولادهما في حرب شعواء .هذه مسألة لا تخطر ببال احد من المتزوجين في الليلة الاولى لفرح عرسهماعلى الاطلاق.

– اعجبني ما قرأت في احدى الصحف الانكليزية ، قبل ايام ، عندما ذكر الكاتب ان اي شخص يطلب من الآخرين الذهاب للحرب ، عوضا عنه ، للدفاع عن افكاره ومبادئه ، فمن اللازم ان يكون موضع شك! قال المضيف ذلك وهو مبتسم ، متوقعا ان يحذو الآخرون حذوه . انتبهت امرأته للمطبة ' اهذا كلام مناسب !؟ انها غلطة . الا ترى كيف جمد الضيوف في اماكنهم ؟ ارجو ان لايشعراحد من الحضور انه المقصود ؟ انهمكت بايصال الطعام لهم ، محاولة ابعادهم عن الاحساس بالنغز ، كلوا ، كلوا ، ذوقوا ، من هذه الاكلة التي طبختها لكم ، ربما تعجبكم . تقدم الاواني بالاطعمة المتنوعة ، نحو صدورهم ، للترغيب . كفى كلاما يحمل تفسيرين . وهل هذا وقته .

بدوره ، يريد الزائر الزوج، اغلاق الموضوع الذي فتح ، على حين غفلة ، فقد تشعب اكثر مما ينبغي . كفى اهتماما بالحروب . حقيقة ، انه مهتم الان ، بتكملة احاديثه التي بدأها قبل لحظات ، قبل ان يضطر لتغييرها من دون رضاه . آن الاوان ان يعود اليها ، مرحا ، مستمتعا ، قبل ان تستولي على الجالسين الرغبة في خوض قضايا الساعة بمخاطرها الجمة ، مستحسنا عدم ذكرها ، محبذا عادة النسيان واغلاق الملفات. الان المضيف لم يمهله طويلا لاستكمال خطته والعودة لنواياه القال والقيل لي . انبرى مقاطعا اياه كالغراب المتهيئ للصياح :

– مولانا ما رأيك بمن قتل ابنه لرفضه الذهاب للحرب . هذه مسألة لم تذكرلا في التاريخ القديم او في الحديث . علاوة على ذلك ، اعطته الدولة وساما على فعلته . تصور . يا دكتورة سها هل سمعت من قبل شيئا كهذا في دراستك بعلم الاجتماع ؟ ! عزاء وسخام . لماذا تدخلنا في هذا الاحراج ؟ ماذا فعلنا لك ؟! تضايق الضيف الزوج من ياقته كقيد . ذابت شخصيته مع زوجته المتقابله معه على المنضدة كشمعتين تدمعان . تذكرا الوسام وصورة الاحتفال الذي نقل بالمناسبة على شاشة التلفزيون . ما اصعب المنظر . ما الذي بقي كي يعيش الانسان من اجله ؟ خبرونا ؟ وهل دفاع المرء عن وطنه الا للمحافظة على ذريته . ماذا بقي للانسان كي يعيش من اجله ؟ قولوا لنا ، أولم يصبح الامر معكوسا ؟ هذه خواطر مدلهمة متجمعة في قرارة نفسيهما ، كثيرا ما يتناولها كل واحد منهما على انفراد ، ومن دون صحبة . تختلف تماما عن الاحاديث المشتركة الاخرى ، ذات الاخذ والرد ، القبول والاستنكار واحيانا الصياح والضجة . يطرحان ، مثلا ، فيما بينهما ، ما يحتاجانه في بيتهما الضخم الكامل الاثاث ، هل يحتاجان الى تبديل سيارتهما هذه السنة ؟ اما آن الاوان لتغييرها ؟ يعرج الزوج ، احيانا ، للمسامرة والاستئناس، حول اخبار بعض العوائل المعروفة بالمدينة والتي لا يزال بعض افرادها متواجدين ولم يهاجروا مع اولادهم بسبب الحرب ، او لشدة الضغوط والمضايقات . يتسلى باخبارهم والتي سيدلقها كما تسكب المرأة المترفة الشاي والحليب بأكواب بلور . كان يتحدث ، قبل قليل ، بهذا الصدد ، قبل ان يفتق الموضوع الكريه ويخرج الرأس ذو الهيئة النافرة من الشق :

– باعوا البستان بثلاثة الآف دينار . بستانا فاخرا ، قرب بغداد . فيه كمثرى وتفاح ورمان ، تين وعنب وبرتقال، لو باعوه بعدئذ لقدر سعره اضعاف هذا المبلغ ، لو ، فقط ، صبروا قليلا .

او ان يقول :

– تزوجت واحدا من بيت الشمام . هو اخو حسين الشمام . لابد من ان تكون قد سمعت به . لا ، لا ، حسين لم يتزوج حتى اليوم .

هذه هي الاحاديث اللذيذة التي يحبها الناس فيما بينهم . وتطمئنهم . امور تنمو وتتطور وتزول، احيانا ، ببساطة . علاقات دافئة حيوانية ، لا عواقب وراءها . ليست خارقة للطبيعة البشرية . ويمكن ان يتصورها اي عقل سوي . لكن المضيف ، على ما يبدو ، يريد ان يستكمل دورة النقاش السابق ، ليس مهتما ببيت حسين الشمام او ببيع البستان ، يحاول ان يتتبع مسار الرأس القبيح المنفرالذي ظهر فجأة . لم يشعر معه الزوجان الضيفان بالامان . لا ، لا، لا داعي لهذا الموضوع الآن ، راغبين في ان تكون حالهما كحال ما نظمه الشاعر في زمانه:

تعالي ننهب اللذات من غفلات دنيانا

يا ليت . دعنا من المطاليب الكثيرة ، رجاءً وبتوسل . إنها مسألة تحتاج الى حظ . نحن ضيوف عندك ، تذكر . يجب أن نكون مؤدبين ايضاً . يا غريب كن الاديب . اصفر وجه الدكتورة سها ، انخمش انفها وتجعد فمها . لماذا لا يدعنا نأكل الطعام براحة ؟! ماذا يريد منا اكثر ؟ واجهت المشكلة ، كشأنها في كل مرة ، عندما تقتحم بصدرها العريض ذي القلائد ، المعارك عوضا عن زوجها. انها دائما ، وكما يعرف ، قادرة على حل الامور المعقدة برويه وشجاعة. قالت اخيرا ، متفطنة لارضاء المضيف ، ولتصفي حسابها معه ، بالتي هي احسن :

– شاهدنا ثلاث نساء ايرانيات مفرفشاتا امس ، تصورنا أنهن عربيات لعظم الشبه بيننا وبينهن ، اكتشفنا ،بعدئذ ، وبعد الابتسامات ، انهن لا يتكلمن لغتنا ، فقد قالت احداهن :" عيد قرباني " فعرفنا انها تقصد عيد الاضحى ، فهذا ميعاده كما نعرف . عجبا ما معنى " عيد قرباني " بالضبط ، في اللغة الفارسية ؟

لا يهم . نعق الغراب مرة اخرى ، وكان قد بدأ صافنا لبرهة وجيزة ، مصغيا لكلامها . رد عليها بجواب لا علاقة له بسؤالها :– نعم ، تصوري ، ان ابنك سيقاتل يوما ابن هذه المرأة من جيرانك .

عزاء مرة اخرى . اغلق من هنا فيفتق من هنا . هكذا نربح ! صار طعم فم دكتورة سها مرا . تناولت قدح عصير البرتقال لشربه . بدأ المضيف يتفلسف . راهيا يناقش فكرة الحروب ، متحاورا كارسطو اليونان . لم لا ؟ ! جالس مرتاح ببيته بلندن . اولاده معه ، كل شيء على مايرام . ظل يتلذذ بالافكار وكأنه ينتقي الكرز الناضج . الزوجان مذعوران خائفان مما سيأتي به من شيء مجهول :

– بقدر ما يكتشفون علاجات لامراض الجدري والحصبة والسعال الديكي والتيفوئيد والكوليرا والسل ، والآن هم يبحثون عن علاج للسرطان ومرض الايدز ، لكنهم للاسف ، غير مهتمين باكتشاف علاج لمكافحة الرغبة في اشعال الحروب . بل العكس انهم دائما يكتشفون اسلحة دمار فتاكة للقضاء على الانسان .ميل . تنفس الزوجان الضيفان الصعداء . كلام عام شامل . لا غبار عليه . تشجع الزوج للادلاء بآرائه ، ايضا ، لم لا ؟ لديه حصة للاضافة الى هذا المعنى بالخصوص. شعر انه حر ليتكلم ، لماذا وهب الله اللسان للانسان ؟! الفرصة ، بالنسبة اليه ، قليلا ما تسنح. دعينا نتكلم ، انا بئر حكي . يريد ان يسرد عليهم حادثة مدفونة في اعماقه . سمعها ذات يوم ، ولم يتفوه بها من شدة الحذر ، انها معه الآن ، يريد ان يشكو، يحتج عليها ، تماما كحاجة الشعوب المحرومة من التعبير الرغبة في الخروج بالمظاهرات . الجالسون معه احرار، اصحابه هم ومن دون سوابق ، الخطر بعيد. انحلت عقدة لسانه . نسي نفسه ، ومن اي بلد جاء . والى اين هو راجع . اهمل العادة المجبر عليها ، والتي صارت شبه مزمنة ، لاحكام اغلاق فمه و ربطه بالكمامات . ذهب خنوعه السابق . عادت له القصة القديمة التي شاء ان يخفيها عن اقرب الناس اليه . انها تلح ، تريد الظهور بشجاعة المظلوم عندما يشعر ان هناك اصغاء : – أتعرف ما حصل لصديقنا طارق المسكين ؟ انت تذكره بالتأكيد، كان معنا في الثانوية . جاء من مدينة العمارة ، كما تعرف . أتتذكره ؟ كان ناجحا الاول في النهائي ، فقبل في كلية الطب منسبا على الكلية العسكرية كي تدفع اجور الدراسة عنه . المهم ، اثناء ما كان في الصف الثاني توفي والده فجأة . تاركا عائلة كاملة لا معيل لها . اراد طارق ان يترك الدراسة من اجل امه واخوانه . سمع البعض فاوصل الخبر الى الكلية العسكرية ثم الى اسماع الزعيم عبد الكريم قاسم . وكان الاخير بمثابة رئيس للجمهورية آنذاك . استدعاه وسأله لماذا ستترك كلية الطب وانت متفوق فيها ؟ اجابه ان راتبه كطالب لا يتجاوز السبعة دنانير بينما لو عين معلما للابتدائية سيكون راتبة اكثرمن ذلك بثلاثة اضعاف .اقترح عليه قاسم ، آنذاك ، ان يبقى في كلية الطب وسيدفع له من جيبه الخاص الفرق بين المبلغين – كانت ، كما تعرفون ، لعبد الكريم قاسم مآثر كهذه – بعد سقوط حكم الاخير سنة ١٩٦٣ ومجيء البعثيين للسلطة بالدبابات مثلما جاء من قبل قاسم ، ولكن بقسوة وعنف اكثر ، قبض على طارق بتهمة كونه قاسميا ، ثم تطورت التهمة الى كونه شيوعيا ، ولم ينقذه احد من الاعدام الا اثنان من زملائه كانا بعثيين ويعرفانه جيدا ، دافعا عنه امام المحكمة فاطلق سراحه . لكن الحكم عليه اقتضى ان يمارس مهنة الطب بعد تخرجه من الجامعة في مناطق المعارك العسكرية فارسل الى شمال العراق . قيل لي ، بعدئذ ، انه بينما كان واقفا ، في احدى المرات ، مع احد كبار الضباط على قمة جبل عال هناك ، تراءى لهما شخصان يسيران معا من بعيد في اسفل الوادي ، فشك بأمرهما وامر الضابط استدعاءهما اليه لمعرفة هويتهما ، تبين ، عندما جيء بهما ، انهما راع مع ابنه الذي لايتجاوزعمره الست سنوات ، فما كان ، بعد التحقيق ، الا ان رمي الولد الصغير من اعلى الجبل امام ابيه الراعي ليعطي درسا بليغا بالابتعاد عن القوات الحكومية مستقبلا وليكون عظة للاخرين. وهنا ، فجأة ، ابتدأ طارق بالتقيؤ امام الحاضرين ، واستمر على ذلك ، بدون انقطاع . نقل الى المستشفى فورا ، وسرعان ماتدهورت حالته الصحية تماما ، ارسل الى لبنان للعلاج بعدئذ ، لكنه توفي بعد فترة قصيرة ، حسبما سمعت .

– بني آدم ، بني آدم !

ردد المضيف بخفوت ثم بصوت واضح . " ميو " صاحت القطة التي كان الطفل يلعب معها بصوت مشروخ ثم هرولت هاربة من المكان . اجفلت الحضور كلهم فسارعت الام ناصحة :

– عزيزي ، الم اقل لك الا تعذبها .

– لم افعل شيئا سوى اني اريد ان اضع حبلا حول رقبتها .

ثم بدأ يبكي . اين المفر ؟ وقفت الام حيرى تريد اسكاته ، تحاول الخروج من بين الكراسي الملتصقة بالمنضدة ، صارت سيقانها راخية . لماذا تخيفني يا شاطر ؟ وعلاوة على ذلك ، يقول عمر الطفل لا يتجاوز الست سنوات مسافة ضيقة في الغرفة اللندنية الصغيرة المحتشدة بالاثاث . قلصت بطنها قدرالامكان، وفكرت امام الحضور ، بصوت عال ، على ضرورة تخفيف وزنها . ضحك البعض منها وعلى رغبتها في تحقيق المعجزات . صار خيرا ، تملصت من الموقف اخيرا وقد غفر لها ما تقدم وما تأخر من ذنوب السمنة لكثرة المعاناة . تشجعت آملة انهم نسوا ما رواه زوجها قبل هنيهات ، وهي ترجو اثناء ذلك ، الا يفتح احد من الحضور بوقه مرة ثانية الا بالدعاء لاهل البيت والثناء . ظلت تكرر وهي على وشك ان تحضن الطفل :

– مائدة لذيذة ، لتكن ، دائما ، مملوءة بالحبور والمسرات .

لندن ٥ / ١٩٩٨

حميد السعدي.. المزاوجة بين الرسم والخط

صاحب احمد

من الحقائق المسلم بها تاريخياً إن الخط العربي ظهر في العراق وفيه ظهرت أولى بوادر تدوين الخط وذلك في القرن الرابع قبل الميلاد، استناداً لما اكتشف من رقم طينية في الوركاء. ففي البدء كانت أشكالاً صورية ثم تطورت إلى ما يسمى الرمزية والمقاطع الصوتية التي عرفت فيما بعد بالكتابة المسمارية، وكان ذلك في زمن الكنعانيين حين ظهرت الهجائية التي فتحت باباً جديداً إذ تطورت وبدأت تنظم بوسائل متعددة.

وهناك، وفي جوانب أخرى اوجد الآراميون الخط الآرامي الذي كان بمثابة نقلة كبيرة لإضفاء تنويعات جديدة، وكذلك ما تلاه في عهد النبطيين والانباريين ثم في الحيرة حيث أسس الخط الكوفي. بعد الحيرة ظهر الخط المكي المدني والبصري، بعدها ظهرت المدرسة البغدادية التي تعتبر من أرقى المدارس الخطية في العالم الإسلامي إذ ظهر وقتها خطاطون مميزون مثل ابن مقلة وابن البواب وزينب الابرية المقلبة (شهدة) وكانت مدرسة تتلمذ على يدها نوابغ الخطاطين مثل ياقوت المستعصمي.

بعد سقوط بغداد مرت فترة مظلمة فتحولت مدارس الخط العربي إلى مدارس أكثر دقة واستقراء لا تزال تلك المدارس تلقي بظلالها على الخط العربي والى يومنا هذا.

وقد ظهر في تلك الفترة خطاطون برعوا في رسم أشكال الخط وقواعده وحافظوا على أصوله وعرف منهم حمد الله الاماسي والحافظ عثمان ومصطفى الراقم ومحمد شوقي ونظيف واحمد الكامل وحامد الامدي الذي تتلمذ على يده الخطاط المعروف هاشم البغدادي. طبعاً لا يمكن أن نجهل انعكاسات وتأثيرات هذه المدارس على خطاطين ظهروا في مصر وتركيا وإيران. (وكم تحدى الطاغية خطاط مثل ابن مقلة الذي تقلد الوزارة ثلاث مرات وقاد جيوشاً ثلاث مرات ودفن ثلاث مرات قطعت يمينه فربط قلماً في مقبضه المبتور وواصل الكتابة).

في الحديث عن الفنان السعدي فقد نشأ في مدن زخرت بالأضرحة والجوامع التي أثرت على مساره الفني لما تحويه تلك الجوامع من روائع للخط العربي وما هو مكتوب على أفاريز خطية وزخرفيه من خارج وداخل تلك الأماكن. حين أقام الفنان حميد السعدي معرضه على (قاعة التحرير) في بغداد في نهاية الثمانينيات كان هناك من بين المعروضات التي اتسمت بالدقة والتقنية حبة كرز كتب عليها السعدي البسملة وبخط الثلث.

بعد سنوات سألت حميد عن تلك الحبة فقال: لقد كتبت بعدها وحاولت إعادتها دون جدوى، لا ادري وأنت تعرف أحياناً المزاج أو قوة النظر وحتى(الإبرة) التي كنت أبردها وأشفرها لم تعد تطاوعني لمثل تلك التجارب الفريدة. كنت أرى في أعمال السعدي مزاوجة وتشابكاً بين الخط والرسم..

ورغم هذا التمازج الذي لا يخلو من الغرابة فإنه ظل أميناً لصياغة الحرف، فإذا أراد رسم لوحة ينتقي ما ينسجم من الحروف وتلك اللوحة فعلى سبيل المثال إذا أراد أن يضمن تلك اللوحة عبارة (إذا الشمس كورت) فهو يلجأ إلى الخط الثلث إذ يرى في ذلك انسجاما لتشكيل اللوحة.

سألت السعدي عن تحولات أساليب الخط، قال: بالنسبة للخط الكوفي فهو واحد من الأقلام الستة الرئيسية في الخط العربي والتي هي الكوفي والثلث والنسخ والتعليق والديواني والرقعة، وهي أساليب تعتبر مرجعاً وصدراً يستخدمها الخطاطون.

ويذكر إن عدداً من الخطوط قد اشتق من الخط الثلث والنسخ.. فالجلي الديواني اشتق من الخط الديواني والذي كان حصراً على بلاط الملوك والأمراء. هناك خط الإجازة الذي اشتق من خط الثلث والنسخ .. أيضاً خط المحقق الذي هو مستخرج من الخط الثلث. طبعاً هناك عدد من هذه الخطوط أخذت تسميتها من الأماكن أو المدن التي وجدت فيها مثالاً على ذلك الخط الأندلسي والمغربي والنيسابوري وغيرها.

أما بالنسبة إلى خط الثلث فكان الخطاطون الأوائل يستخدمون قلماً يسمى الطومار وهو أشبه بوحدة قياس أخذت من شعر حيوان البرذون "البغل" إذ يكون من ٢٤ شعرة وكان قلم الطومار قد قسم على هذه الأسس. وخط الثلث كان ثلث قلم الطومار ومنها اتخذ اسمه. أما خط النسخ فقد أخذ اسمه لاستعماله في نسخ القرآن... والكتابة الدارجة. أما بالنسبة إلى خط التعليق فقد أخذت تسميته لكون شكل الحرف يبدو معلقاً. هناك خط الرقعة وهونوع من الخطوط المختزلة لأنه كان يكتب على الرقع الطينية والبردي وجريد النخل وهو أكثر الخطوط شيوعاً لتناوله بالتعامل بالحياة اليومية. هناك خطوط اندثرت وندر أستعمالها تقريباً مثل الخط النيسابوري نسبه إلى مدينة نيسابور التي تقع شمال إيران ذلك لمحلية هذا النوع من الخط وانقطاع صلته ببقية الخطوط. كذلك خط السياقات الذي انتشر في مصر لكنه سرعان ما أهمل. والحقيقة ان الخط يستند إلى قاعدتين الخطوط اليابسة التي تشمل الكوفي وما استنبط منها والخطوط اللينة التي هي خط الثلث وما خرج منه، اشتهر في ممارسة هذه الأنواع من الخطوط عدد من الخطاطين في مختلف البلدان آنذاك فقد برع في خط الثلث والخطاط سامي أما خط النسخ فتفرد به محمد شوقي أما خط التعليق فقد اشتهر في الأتراك والفرس على السواء وكل له خصوصيته وأسلوبه.

ويعتبر عماد الحسني من رواد خط التعليق بلا منازع أما الخط الديواني وجلي الديواني والرقعة فقد برع فيها الخطاط محمد عزت. لابد هنا من الإشارة إلى ذكر عدد من الخطاطين الذين تلوا هاشم الخطاط وهم الجيل الذي ترك بصماته على الخط العربي منهم الحاج مهدي الجبوري وخليل الزهاوي.